الحياة الطيّبة
السنة 27
العدد 54 - 55
صيف-خريف 2023م
أبحاث ودراسات

مفهوم الإيمان في الإسلام.. مدخل تفسيريّ لدور العقيدة في البناء الاجتماعيّ

الحسن حما[1]

مستَخلَص:

تحاول هذه الدراسة بلورة رؤية تفسيريّة للأبعاد الاجتماعيّة (العقديّة) عبر مفهومين تطبيقيّين: «الإيمان» و«الملّة»، حيث تجسّد أحد الجوانب المغيّبة في دراسة قضايا العقيدة وفق منهجيّة يمكن أن تساهم في تجاوز النظر التجريديّ الذي تتّسم به موضوعات علم الكلام، وبخاصّة أنّنا نعيش في سياق عالميّ يحاول تقويض «الإيمان»، لما يعرفه المحيط الإقليميّ والدوليّ من ظهور موجة من التطرّف والإرهاب نابعة في جوانب منها من «التديّن»؛ الأمر الذي شغل هذه الدراسة ورامت توضيحه في سياقات دينيّة، اجتماعيّة، وثقافيّة، متّصلة بمستويات التعايش الإنسانيّ الممكنة، إذ إنّ غاية الإنسان الأسمى هي توفير الأمن الروحيّ والفكريّ والاجتماعيّ.

هذا، وتحتوي الدراسة على العناصر الآتية:

1. مفهوم الإيمان في الإسلام
2. التعبيرات الاجتماعيّة للإيمان الإسلاميّ
3. المفاهيم الاجتماعيّة للإيمان في الإسلام

(1) باحث في الفكر الإسلاميّ، من المغرب.

4. علاقة الإيمان بـ«الملّة»
5. مفهوم الأمّة وعلاقته بالإيمان.

كلمات مفتاحية:

مفهوم الإيمان، الإسلام، العقيدة، البناء الاجتماعي.

مقدّمة:

إنّ تعريف مفهوم «الإيمان» في المجال التداوليّ الإسلاميّ يعود بنا إلى بنية الدرس الكلاميّ وإشكالاته المعرفيّة والفلسفيّة، وذلك للوقوف عند بنيته الفكريّة في قضايا الإنسان والدين، والتي يمكن اعتبارها أحد الأسئلة المركزيّة التي تواجه التفكير الدينيّ الإسلاميّ عمومًا، والفكر الكلاميّ بشكل خاصّ؛ أي قدرة علم الكلام على تقديم إجابة عن الإشكالات والتحدّيات المطروحة على الدين والتديّن؛ أو بصيغة أكثر تحديدًا: ما الذي يمكن لعلم الكلام (القديم منه والجديد) أن يقدّمه للإنسان؟ وذلك باعتبار أنّ الإنسان لم تعد قضيّته الأساس اليوم هي العثور على معتقدات ليصدّقها فيؤمن بها سعيًا وراء السعادة والنجاة في الآخرة؛ وإنّما قضيّته الأكثر حضورًا في تداوله الفلسفيّ والثقافيّ هي البحث عن مداخل معرفيّة ومرجعيّات أكثر فهمًا واستيعابًا للظاهرة الإنسانيّة، والبحث عن الاطمئنان الروحيّ والمعنويّ في الحياة الدنيا التي تعقّدت أكثر بفعل التحوّلات التي حملتها العولمة فأصبحت معها حياة الناس في تمزّق.

هذا المسعى سوف تعكسه بروز قراءات تجديديّة نقديّة، والانشغالات البحثيّة لعدد من الباحثين والمفكّرين، وهو ما يؤكّد حاجة هذا الحقل المعرفيّ إلى تجديدٍ نوعيٍّ يوازي التحوّلات الاجتماعيّة والتحدّيات المعاصرة على التديّن والدين بشكل عام. وبقدر ما تكشف هذه الدراسات عن الحاجة الملحّة لتجديد علم الكلام، تكشف من جانب آخر عن ضعف الدراسات الكلاميّة في حقل الدراسات الأكاديميّة في عالمنا العربيّ، مقارنة بتطوّر هذا المبحث في الجامعات الغربيّة[1]؛ ولهذا حاول علماء وباحثون النهوض به وتجديد آليّاته وموضوعاته[2].

(1) ولد باه، السيّد: «تجديد علم الكلام من منظور فلسفات التأويل والعلوم المعاصرة»، قُدّم للندوة العلميّة الدوليّة بعنوان «العلوم الإسلاميّة أزمة منهج أم أزمة تنزيل»، نظّمتها الرابطة المحمديّة للعلماء، أكادير-سلسلة ندوات علميّة (الرقم 3)، ط1، ص501.

(2) ويمكن العودة إلى البدايات التجديديّة لهذا الحقل المعرفيّ، بظهور كتابٍ «رسالة التوحيد» لمؤلّفه محمّد عبده؛ الذي حاول من خلاله إعطاء معاني جديدة للتوحيد أكثر ارتباطًا بالواقع. وكذلك محاولة

إنّها محاولات تجديديّة يسعى من خلالها الفكر الإسلاميّ إلى تشكيل منظار جديد في تناول قضايا التفكير الدينيّ، لكنّها تحتاج إلى إسهاماتٍ أخرى قادرة على استثمار الآفاق الرحبة للقرآن المجيد، وتنهل من التقدّم النوعيّ للعلوم الإنسانيّة المعاصرة. لذلك يعتبر بعض الباحثين أنّ مفكّرينا لم يستطيعوا أن يحقّقوا في مجال الدراسات الكلاميّة النجاح ذاته الذي حقّقه مفكّرو الغرب في تعاملهم مع النصوص الدينيّة للكتاب المقدّس...»[1].

أوّلًا: مفهوم الإيمان في الإسلام:

الإيمان: مصدر «آمن يُؤمنُ إيمانًا، فهو مُؤمنٌ، ومعناه التصديق»[2]. وفي اللغة: التصديق بالقلب. وفي الشرع: «الاعتقاد بالقلب والإقرار

محمّد إقبال في الثلاثينيّات من القرن الماضي لإعطاء معاني جديدة لعلم الكلام، وبخاصّة في محاضراته التي ألقاها في مدارس بالهند عام 1928م، ثمّ أصدرها في كتابه الشهير «تجديد التفكير الدينيّ في الإسلام». ومن ذلك أيضًا الجهد الموسوعيّ لحسن حنفي من خلال كتابه «من العقيدة إلى الثورة»، وظهور مدرسة إيران الجديدة التي حاولت تأسيس «علم كلام جديد»، والتي حمل لواءها أمثال «عبد الكريم سروش» و«مصطفى ملكيان» و«مجتهد سبشتري»، وصولًا إلى العمل المهمّ الذي بدأه «عبد الرحمان بدوي» و«علي سامي النشار»، والعمل النوعيّ الذي قدّمه الدكتور سعيد بن سعيد العلويّ في أطروحته حول الأشعريّة، والإبداع المنهجيّ الذي بلوره «طه عبد الرحمن» لدراسة المنهج الكلاميّ من منظور منطق الحجاج والمناظرة الحديثة.

وأمّا مصطلح «علم الكلام الجديد» فَقد ظهر للمرّة الأولى في عنوان كتاب العالم الهنديّ المسلم شلبي النعمانيّ (المتوفّى سنة 1332هـ)، ثمّ نقله إلى الفارسيّة محمّد تقيّ الدين فخر داعي الكيلانيّ، وطبعه في طهران (سنة 1950/1329م) بالعنوان نفسه... وفي مقدّمة كتاب «الإسلام يتحدّى»، أوضح العالم الهنديّ المسلم وحيد الدين خان (عام 1936م) المبرّرات التي دعته إلى تأليف كتابه هذا، فشدّد على ضرورة التحرّر من منهج علم الكلام القديم... وبعد ذلك بسبعة أعوام أصدر وحيد الدين خان كتابه الكلاميّ الثاني «الدين في مواجهة العلم»، وأردفه بعد فترة بدراسة أعدّها بعنوان «نحو علم كلام جديد»، ألقاها في ندوة «تجديد الفكر الإسلاميّ»، التي عقدتها الجامعة الإسلاميّة بدلهي في 27 ديسمبر 1976م. أما لدى الباحثين العرب، فقد ذكر مصطلح «الكلام الجديد» الدكتور فهمي جدعان سنة 1976م، وذلك في كتابه «أسس التقدّم عند مفكّري الإسلام في العالم العربيّ الحديث»، في الفصل الرابع الذي عقده للحديث عن «التوحيد المتحرّر» وبواعث التفكير الكلاميّ الجديد لدى بعض المفكّرين المسلمين المحدّثين... وكذلك في كتاب «الحياة الطيّبة»، وفيه سلسلة بحوث مواكبة للعصر. انظر: الرفاعي، عبد الجبّار، علم الكلام الجديد؛ تمهيد وعرض تاريخيّ، كتاب الحياة الطيّبة، سلسلة بحوث مواكبة للعصر، ص50-53.

(1) ولد باه، «تجديد علم الكلام من منظور فلسفات التأويل والعلوم المعاصرة»، م.س، ص508.

(2) ابن منظور، محمَّد بن مكرم: «لسان العرب»، لا ط، بيروت، دار صادر، لا ت، ج13، ص23.

باللسان»[1]، ولهذا كانت العرب قبل نزُول الْقُرْآن وبعثة النَّبِي ﷺ تطلق الإيمان على التصديق و«لَا يعْرفُونَ فِي لغتهم إِيمَانًا غير ذَلِك»[2]، وَيدلّ على ذَلِك قَوْله تَعَالَى: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾[3].

أما حقيقة الإيمان في علم الكلام فهي: «الإقرار باللسان والتصديق بالجنان، وجميع ما صحّ عن رسول ﷺ من الشرع والبيان كلّه حقّ. والإيمان واحد وأهله في أصله سواء، والتفاضل بينهم بالخشية والتُقى ومخالفة الهوى وملازمة الأولـى»[4]. هذا، إلّا أنّه اختُلِفَ في ماهيّته بين الفرق الكلاميّة؛ بين أن يكون معرفة لله بالقلب فقط، أو بالإقرار باللسان، أو معرفة بالقلب وإقرارًا باللسان معًا، أو معرفة وإقرارًا باللسان وعملًا بالجوارح. وقد تشعّب النظر إليه بطرق عقلانيّة استدلاليّة أُخذت من التصوّف والعرفان والفلسفة، حيث يصف ابن حزم هذا الاختلاف في نصٍّ طويل له يقول فيه: «اختُلف في ماهيّة الإيمان، فذهب قوم إلى أنّ الإيمان إنّما هو معرفة الله تعالى بالقلب فقط، وإن أظهر اليهوديّة والنصرانيّة وسائر أنواع الكفر بلسانه وعبادته. فإذا عرف الله تعالى بقلبه فهو مسلم من أهل الجنّة، وهذا قول أبي محرز الجهم بن صفوان وأبي الحسن الأشعريّ البصريّ. وذهب قوم إلى أنّ الإيمان هو إقرارٌ باللسان بالله تعالى، وإن اعتقد الكفر بقلبه، فإذا فعل ذلك فهو مؤمن من أهل الجنّة، وهذا قول محمّد بن كرّام السجستاني وأصحابه، وذهب قوم إلى أنّ الإيمان هو المعرفة بالقلب

(1) الجرجانيّ، عبد القادر: التعريفات، تحقيق: عبد المنعم الخفنيّ، لا ط، القاهرة، دار الرشاد، لا ت، ص50.

(2) الباقلّاني، أبو بكر: تمهيد الأوائل في تلخيص الدلائل، تحقيق: عماد الدين أحمد حيدر، ط1، بيروت، مؤسّسة الكتب الثقافيّة، ط1، 1407هـ/1987م، ص2.

(3) سورة يوسف، الآية 17.

(4) الطحاويّ، أصول العقيدة الإسلاميّة، م. س، ص135؛ انظر كذلك: التعريفات للجرجانيّ، م.س، ص41؛ التحصيل من المحصول للأرمويّ، ج1، ص169؛ المحصول، ج1، ص12؛ إجابة السائل للصنعانيّ، ص60؛ تفسير الرازي، ج2، ص27-61؛ تفسير ابن كثير، ج1، ص40؛ حاشيتا التفتازانيّ والجرجانيّ على ابن الحاجب، ج1، ص60-61؛ شعب الإيمان، ج1، ص35؛ الشخصيّة الإسلاميّة للنبهانيّ، ج1، ص19.

والإقرار باللسان معًا، فإذا عرف المرء الدين بقلبه وأقرّ بلسانه فهو مسلم كامل الإيمان والإسلام. وأنّ الأعمال لا تسمى إيمانًا ولكنّها شرائع الإيمان، وهذا قول أبي حنيفة النعمان. وذهب سائر الفقهاء وأصحاب الحديث والمعتزلة والشيعة وجميع الخوارج إلى أنّ الإيمان هو المعرفة بالقلب بالدين والإقرار به باللسان والعمل بالجوارح، وأنّ كلّ طاعة وعمل خير، فرضًا كان أو نافلة، فهو إيمان، وكلّما ازداد الإنسان خيرًا ازداد إيمانه، وكلما عصى نقص إيمانه»[1].

إنّ الاختلاف في ماهيّة «الإيمان» له صلة وثيقة بمفردة الإسلام وعلاقتها بالإيمان، وهل هما مترادفان أم مختلفان، بعد الاتّفاق على أنَّ لفظَي «الإسلام» و«الإيمان» منقولان عن موضوعهما في اللغة إلى معانٍ محدودة معروفة لم تعرفها العرب حتى أنزل الله ﷻ بها الوحي على النبيّ ﷺ أنّه من أتى بها استحقّ اسم الإيمان والاسلام[2]. وقد ورد استعمالهما في الشرع على سبيل الترادف والتوارد، وورد على سبيل الاختلاف، وورد على سبيل التداخل، وعلى سبيل التداخل والاختلاف، وهو أوفق الاستعمالات في اللغة[3]. ففي الترادف قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[4]، وأمَّا الاختلاف فقوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[5]، وفي معنى التداخل ما رُوي

(1) الأندلسيّ، ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ط2، بيروت، دار المعارف، 1395هـ.ق/1975م، ج3، ص188-189.

(2) حلليّ، عبد الرحمن: «اقتران الإيمان بالعمل الصالح في القرآن الكريم ودلالاته الحضاريّة»، مجلّة جامعة دمشق للعلوم الاقتصاديّة والقانونيّة، العدد 3، 2011م، ج27، ص446.

(3) الغزاليّ، أبو حامد: «قواعد العقائد»، تحقيق: موسى علي، ط2، بيروت، عالم الكتب، 1405هـ.ق/1985م، ص237-240.

(4) سورة الذاريات، الآيتان 35-36.

(5) سورة الحجرات، الآية 14.

أنّه ﷺ سُئل فقيل: «أيّ الأعمال أفضل»؟ فقال ﷺ: «الإسلام»، فقال: «أي الإسلام أفضل؟» فقال ﷺ: «الإيمان»[1].

ثانيًا: التعبيرات الاجتماعيّة للإيمان الإسلاميّ:

يتمحور خطاب الإيمان في القرآن المجيد حول الفرد المؤمن أو «جماعة المؤمنين»، ويضع لذلك شروطًا ومواصفات، يبيّنها قوله ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[2].

ومن خلال القراءة الحرفيّة لهذا النصّ يظهر أنّ المؤمن الحقّ «إنسانٌ ورع حقًّا، وفي قلبه مجرّدُ ذكر اسم الله كافٍ لأن يثير إحساسًا شديدًا بالوجل، وحياتُه كلّها محكومةٌ بمزاج أصيل من الجدّيّة العميقة"[3]. هذا، ولكنّ الواقع يكشف عن مؤمن مغاير لهذا التصوّر؛ فقد نجد إنسانًا مؤمنًا لكنّه غير ملتزم في سلوكيّاته الاجتماعيّة بالقواعد والقوانين المنظّمة للمجتمع، وهو مضمون قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾[4]، ولهذا نجد في المجتمع أشخاصًا ورعين تقين مؤمنين ملتزمين بالشعائر التعبّدية، لكنّهم غير منضبطين للسلوك المدنيّ المؤطّر للمجتمع، وهو خلاف «الإيمان الحقُّ [الذي] ينبغي أنْ يعمل عمل الدافع الأقوى الذي يدفع الناس إلى الأعمال الصالحة، وإذا لم يعمل هذا العمل فهو ليس إيمانًا حقًّا؛ بل يجب، أكثر من ذلك، أن يجد تعبيرًا له في كلِّ عملٍ تقريبًا في الصِلات العاديّة للإنسان بالإنسان في الحياة. هذا

(1) أخرجه الإمام أحمد والطبرانيّ من حديث عمرو بن عبسة، وفي الشطر الأخير قال رجل: «يا رسول الله ﷺ أيّ الإسلام أفضل؟». قال: «**الإيمان**»، والحديث إسناده صحيح لكنّه منقطع؛ نقلًا عن: «قواعد العقائد» للغزاليّ، م. س، ص240.

(2) سورة الأنفال، الآيات 2-4.

(3) إيزوتسو، ت.: «المفهومات الأخلاقيّة-الدينيّة في القرآن»، ترجمة: عيسى علي العاكوب، ط1، سوريا، دار الملتقى، 1429هـ/ق2008م، ص306.

(4) سورة البيّنة، الآية 7.

الترابطُ العميق بين الإيمان والأعمال الصالحة اتّخذ في ما بعدُ في علم الكلام أهمّيَّة واضحة عندما أثار المعتزلةُ المسألة في صورة أكثر حدّة، من خلال تأكيد أنّ «الإيمان» مستقلٌّ تمامًا عن الأعمال، ومهما تكن الذنوب التي يرتكبها الإنسان فإنّها لا تؤثّر البتَّة في كونه «مؤمنًا» صادقًا، إذا كان الإيمانُ وحده موجودًا»[1]. ويصف القرآن مجموعة أعمال ومواصفات يتحلّى بها هؤلاء المؤمنون فقط، وقد «خصّ سبحانه اسم العبوديّة بالمشتغلين بالعبوديّة، فدلّ ذلك على أنّ هذه الصفة من أشرف صفات المخلوقات»[2]. فقال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾[3].

يصف سيّد قطب﵀ صفة «عِبادُ الرَّحْمنِ» المتضمّنة في الآيات السابقة بأنّها صفة تخصّ المؤمنين بصفاتهم المميّزة ومقوّماتهم الخاصّة، وكأنّما هم خلاصة البشريّة في نهاية المعركة الطويلة بين الهدى والضلال، بين البشريّة الجاحدة الشاقّة والرسل الذين يحملون الهدى لهذه البشريّة. وكأنّما هم الثمرة الجنيّة لذلك الجهاد الشاقّ الطويل، والعزاء المريح لحملة الهدى في ما لاقوه من جحود وصلادة وإعراض! وهذا يؤكّده تجاهل المشركين واستنكارهم لاسم «الرَّحْمنُ»، فها هم أولاء عباد الرحمن، الذين يعرفون الرحمن، ويستحقّون أن ينسبوا إليه، وأن يكونوا عباده. ها هم أولاء بصفاتهم المميّزة ومقوّمات نفوسهم وسلوكهم وحياتهم. ها هم

(1) إيزوتسو، «المفهومات الأخلاقيّة-الدينيّة في القرآن»، م. س، ص306–307.
(2) الرازي، فخر الدين: «مفاتيح الغيب»، ط1، بيروت، دار الفكر، 1401هـ.ق/1981م، مجلَّد 12، ص107.
(3) سورة الفرقان، الآيات 63-69.

أولاء مثلًا لحياة واقعيّة للجماعة التي يريدها الإسلام، وللنفوس التي ينشئها بمنهجه التربويّ القويم. وهؤلاء هم الذين يستحقّون أن يعبأ بهم الله في الأرض، ويوجّه إليهم عنايته، فالبشر كلّهم أهون على الله من أن يعبأ بهم، لولا أنّ هؤلاء فيهم، ولولا أنّ هؤلاء يتوجّهون إليه بالتضرّع والدعاء[1]. وتتعزّز هذه الصفات بأخلاق اجتماعيّة نابعة من إيمان صادق وخالص لله ﷻ الوارد ذكره في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّة وَسَلَامًا﴾[2].

إنّ مظاهر الحلم والخشية وحفظ الأمانة والصلاة مظاهر أساس للمؤمن الحقّ الذي يصفه القرآن المجيد ويعده بالفوز والفلاح، وهؤلاء المؤمنون لهم الفلاح والنجاة المشروط بأداء الصلاة والإعراض عن اللغو وحفظ الفرج على غير الزوج وحفظ الأمانة والعهود، وهذه جميعها التزامات اجتماعيّة أساس؛ الرابط بينها هو كون الإيمان صلة الإنسان بالله، كما إنّ المنهيّات والعهود المطلوب حفظها في الآية عن صلة الإنسان بالإنسان

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ العَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَئِكَ هُمُ الوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[3] من هنا «يظهر أنّ الإيمان بالله إنّما تنعكس آثاره من الأعمال الصالحة والصفات الجميلة النفسانيّة، كالخشية والخشوع

(1) انظر: سيّد قطب، «في ظلال القرآن»، ج5، ص2577.
(2) سورة المؤمنون، الآيات 72-75.
(3) سورة المؤمنون، الآيات 1-11.

والإخلاص ونحوها إذا لم يغلبه الدواعي الباطلة والتسويلات الشيطانيّة. وبعبارة أخرى: إذا لم يكن إيمانًا مقيّدًا بحال دون حال، كما في الآية ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾[1] فالمؤمن إنّما يكون مؤمنًا على الإطلاق إذا جرت أعماله على حقّ ما يقتضيه إيمانه من الخشوع في عبادته والإعراض عن اللغو ونحوه»[2].

ثالثًا: المفاهيم الاجتماعيّة للإيمان في الإسلام:

يقدّم الإسلام الإيمان في حزمة مفاهيم وألفاظ يتداخل فيها الثقافيّ بالاجتماعيّ والتشريعيّ والدينيّ؛ مثل: الملّة، الأمّة، المؤمن، الجماعة... وغيرها من المفاهيم التي نعتبرها تجلّيًا اجتماعيًّا للإيمان الإسلاميّ، ودراسة هذه المفاهيم داخل الحقل المرجعيّ للقرآن الكريم يعطي إضافةً نوعيّة في تحديد الأبعاد الاجتماعيّة للإيمان؛ أي إنّ تناول موضوع العقيدة (الإيمان أنموذجًا) يتجاوز المنظور الكلاميّ المجرّد إلى مقاربةٍ تسعى إلى التفسير ورصد ظاهرة الإيمان في تجلّياتها ومعطياتها الواقعيّة، وذلك من خلال مفاهيم يقدّمها النصّ القرآنيّ.

يعتبر مفهوم «الملّة» من المفاهيم التي تستوعب الإيمان، ويتّضح ذلك عند مقابلة «الإيمان» بمفهوم آخر مضادّ له في المنظومة القرآنيّة؛ وهو «الكفر». يقول الله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾[3]، ويقول: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾[4]، كما يقول: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ

(1) سورة الحجّ، الآية 11.
(2) الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج8، ص15.
(3) سورة يوسف، الآية 37.
(4) سورة البقرة، الآية 129.

الْمُشْرِكِينَ﴾[1]، فعدَّ «الملّة» مناقضةً للشرك والكفر، من حيث إنّها تدلّ على الحنفيّة السمحة التي تقصد توحيد الله سبحانه، وهذا المعنى يتشكّل عند التدقيق في البنية الدلاليّة لـ«الملّة» الذي نلاحظ أنّه يُحيل على الدلالة نفسها لمفهوم «الإيمان»؛ وهو ما نجده عند الراغب الأصفهانيّ في تعريفه لمفردة «الملّة» الذي يحدّده في أنّه «اسم لما شرّعه الله ﷻ لعباده على لسان أنبيائه ليتوصّلوا به إلى جوار الله»[2]. و«الملّة» في الأصل اسمٌ من «أمللت الكتاب بمعنى أمليته» كما قال الراغب، ومنه: «طريق ملول» -أي مسلوك معلوم- كما نقله الأزهريّ، ثمّ نُقلت إلى أصول الشرائع باعتبار أنّ النبي ﷺ يمليها ولا يختلف الأنبياء ﷺ فيها، «وقد تطلق على الباطل، كـ«الكفر ملّة واحدة»، ولا تضاف إليه سبحانه فلا يقال: «ملّة الله»، ولا إلى آحاد الأمّة، والدين مرادف لها صدقًا، لكنّه باعتبار قبول المأمورين؛ لأنّه في الأصل الطاعة والانقياد ولاتّحاد ما صدّقهما. قال ﷻ: ﴿دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[3]. وقد يطلق الدين على الفروع تجاوزًا، ويضاف إلى الله ﷻ وإلى الآحاد وإلى طوائف مخصوصة نظرًا إلى الأصل، على أنّ تغاير الاعتبار كافٍ في صحّة الإضافة، ويقع على الباطل أيضًا»[4].

فإذا كان الإيمان -كما سبق- «الاعتقاد بالقلب والإقرار باللسان»، فإنّ مقصود الإيمان «الاعتقاد بالعقائد التي يوحي بها الله عن طريق الأنبياء والرسل. ومن تعريفات «الملّة» أنّها جملة الأصول والعقائد التي يبلّغها كلّ رسول أو نبيّ إلى قومه خاصّة؛ أي «الشَّرِيعَة أَو الدّين، كملّة الْإِسْلَام والنصرانيّة، وَهِي اسْم لما شرّع الله لِعِبَادِهِ بوساطة أنبيائه ليتوصّلوا بِهِ إِلَى السَّعَادَة فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة»[5].

(1) سورة آل عمران، الآية 95.
(2) الأصفهاني، الراغب: المفردات في غريب القرآن، لا ط، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصريّة، لا ت، ص716.
(3) سورة الأنعام، الآية 161.
(4) الألوسيّ، شهاب الدين: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطيّة، ط1، بيروت، دار الكتب العلميّة، 1415هـ.ق، ج1، ص369.
(5) المعجم الوسيط، ج 2، ص887.

وفق التحليل السابق، يسعى كلٌّ من مفهومي «الملّة» و«الإيمان» إلى التأسيس للاعتقاد بعقائد وأصول تشكّل جوهر الدين الإسلاميّ، ويصحّ بها وصف المسلم مؤمنًا، إذا ما حقّق التحقّق القلبيّ لما يعتقده وكان له أثر على سلوكه، إمّا بواسطة انتمائه للجماعة أو بتعبّده الفرديّ. هذه الخلاصة هي مضمون السؤال عن علاقة الملّة بالإيمان؟ وعن علاقته بالتعبير عن المضمون الاجتماعيّ للإيمان الإسلاميّ.

رابعًا: علاقة الإيمان بـ«الملّة»:

يظهر مفهوم «الملّة» كـتجلٍّ اجتماعي من خلال «جماعة المؤمنين» التي وردت في القرآن، والصفات التي يذكرها القرآن لهذه الجماعة، والمقام العليّ الذي يعد به المؤمنين في الجنّة، يقول الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[1]، فكلّ من دخل في جماعة المؤمنين له مقام في الجنّة جزاءً بما صنع في الدنيا، والخطاب القرآنيّ في مواطن عديدة موجّهٌ إلى «جماعة المؤمنين»، ويقترن في بعض المواضع بشروط هذه الجماعة التي لا يجوز أن تقترف بعض الأعمال التي في منطوق القرآن يتّصف بها فقط من هم خارج نطاق الجماعة المؤمنة. هذا المعنى يوضح الإشارات التي أوردها الطبريّ في تفسيره، وهي معانٍ تحتوي على أبعاد سياسيّة واجتماعيّة لهويّة الجماعة المؤمنة ضمن إطار «الملّة». يقول في تفسيره للآية السابقة: «ليورثنّهم الله أرض المشركين من العرب والعجم، فيجعلهم ملوكها وساستها ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[2] كما فعل منْ قبلهم ذلك ببني إسرائيل، إذ أهلك الجبابرة بالشام، وجعلهم ملوكها وسكّانها ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي

(1) سورة التوبة، الآية 72.
(2) سورة النور، الآية 53.

ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[1] وليوطّئنّ لهم دينهم؛ أي: ملّتهم التي ارتضاها لهم، فأمرهم بها»[2].

إنّ القول بهذه الصفات والخصال التي يختصّ بها زمرة المؤمنين يؤسّس لمؤسّسة اجتماعيّة، وهذه الجماعة تتبلور في مفهوم «الملّة» التي تستوعب جميع من يتّصف بمقوّماتها العقائديّة والدينيّة: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[3]. وهذه الملّة هي التي من أجلها ترك يوسف عليه السلام جماعة غير مؤمنة لكي يلتحق بالجماعة المؤمنة: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ﴾[4].

ويكتسب مفهوم «الملّة» صفة التعبير الاجتماعيّ عن الإيمان؛ لأنّ القرآن يضع له شرط الإيمان لكلّ إنسان يريد الدخول لهذه الجماعة ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[5]. هنا يظهر مفهوم آخر له دلالة اجتماعيّة وسياسيّة؛ وهو «الولاية» القائمة بين المؤمنين. والتأسيس السابق يتأكّد عند دراسته ضمن سياقات قرآنيّة أخرى، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ

(1) سورة النور، الآية 53.
(2) الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج19، ص207.
(3) سورة الأنعام، الآية 161.
(4) سورة يوسف، الآيتان 37-38.
(5) سورة التوبة، الآية 71.

نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[1].

والأخوّة المقصودة هنا هي الأخوّة في الدين، بحيث يلزم الإصلاح إذا اقتتلا بأن تحملوهما على حكم الله وحكم رسوله. ومعنى الأخوين في هذا الموضع: كلّ مقتتلين من أهل الإيمان[2]، وهي الفئة المقصودة كذلك في قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[3]، وقوله ﷻ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾[4].

وتَكشفُ الأبعاد التي تكتنف مفردة «الملّة» عن التجلّيات الاجتماعيّة للإيمان من خلال تقديمه للمؤمنين مفهومًا مستوعبًا للجماعة لها شروطها الدينيّة وخصائصها السياسيّة والثقافيّة والاجتماعيّة، فالأخوّة أساسٌ دينيٌّ واجتماعيٌّ في الوقت نفسه لهذه الجماعة، والجهاد ونصرة القوم من شروطها التي يجب الالتزام بها من قبل المؤمن.

خامسًا: مفهوم الأمّة وعلاقته بالإيمان:

تحيل لفظة الأمّة في اللغة على «الحالة والشِّرْعة والدين»[5]، والمقصود بها كلّ جماعة يجمعها أمرٌ ما: إمّا دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد، سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيرًا أو اختيارًا. وجمعها «أمم»، كما يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي

(1) سورة الحجرات، الآيات 10-12.
(2) الطبريّ، جامع البيان في تأويل القرآن، م.س، ج 22، ص297.
(3) سورة الحجرات، الآية 15.
(4) سورة الأنفال، الآية 74.
(5) الفيروز آباديّ، مجد الدين: القاموس المحيط، ط1، بيروت، مؤسّسة الرسالة، 1406هـ.ق/1986م، ص1391.

مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1] أي: جماعة في الإيمان[2]. وقد استعمل القرآن المجيد لفظ «الأمّة» 49 مرة، ولها معانٍ متعدّدة حسب السياق الذي يرد فيه اللفظ، ومن معانيها: «عصبة» أو مجموعة من الناس، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾[3] أي جماعة من الناس يسقون أغنامهم، وكذا: ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[4].

والملاحظ من الآيات أعلاه أنّ مفهوم «الأمّة» وعاء من الأوعية الاجتماعيّة المفاهيميّة التي من خلالها يتمّ تصريف الأبعاد الاجتماعيّة للإيمان، فالجماعة تنتظم عبر مؤسّسات اجتماعيّة، وأعراف، وتقاليد، وقوانين، ونظم سياسيّة... وجميع هذه الأعمال يوجّهها الإيمان الذي يشكّل الخيط الرابط بين أعضاء هذه الجماعة. هذا، وتنتظم العلاقة بين مفهوم «الإيمان» و«الأمّة» من اعتبار «الأمّة» جماعة يجمعها اللغة والدين والانتماء وجملة من القواسم المشتركة. ولا نقصد هنا الجماعة بما هي مفهوم سياسيّ؛ وإنّما الجماعة بما هي مفهوم اعتقاديّ. وأهمّ صفة مميّزة لهذه الجماعة، والتي تتشكّل من خلالها: الإيمان ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾[5].

وتتجلّى العلاقة بين «الإيمان» و«الأمّة» بشكل أدقّ من خلال اعتبار الدين مؤسّسة اجتماعيّة تفرّعت منه مفاهيم من قبيل: «الأمّة»، «جماعة المؤمنين»، «الملّة»، «المذهب»، «النحلة»، و«الفرقة».

(1) سورة النحل، الآية 93.
(2) الأصفهانيّ، المفردات في غريب القرآن، م. س، ص28.
(3) سورة القصص، الآية 23.
(4) سورة النحل، الآية 92.
(5) سورة آل عمران، الآية 113.

خاتمة:

عمل الإسلام على تقديم الإيمان من خلال مفاهيم تعتبر أوعية اجتماعيّة يتأسّس من خلالها الإيمان لكي يشكّل إطارًا نظريًّا موجّهًا للوعي الاجتماعيّ الموجّه لسلوكيّات الفرد وأفعاله في الواقع. والأكيد أنّ القرآن يرشد الفعل الاجتماعيّ للإنسان عبر سياقات وفلسفة تشريعيّة، من خلال ما كشفت عنه المفاهيم الدينيّة في سياقات استعمالها داخل الآيات والأحاديث النبويّة.